الفصل الأول

# المقاصد
# المصطلح والأهمية

obeikandi.com

obeikandl.com

# أولاً: المصطلح ومتعلّقاته

نستهل الحديث عن المصطلح ومشتقاته ببيان فكرة مجملة عن مختلف المستويات، فركّزنا في البداية على مستوى العبارة الدالة على المصطلح ثم ألحقنا بها ما يفيد تلك المعاني إشارة.

المصطلح في سياق الحديث عن مقاصد رسائل النور يمثّل من حيث العنوان لفظا دقيقا أو مستوى قريب منه للدلالة على معنى مخصوص يستصحب في الغالب الأعم المعنى المعجمي الأصلي، فلفظ المقاصد مثلا تُستلّ دلالته المعجمية من لفظ مقصد وهو بدوره عالة على لفظ قصد، كما أنّ الدلالة الاصطلاحية تعود إلى المعنى نفسه، إذ يراد بالقصد لغة إتيان الشيء، وقصدت قصده، نحوت نحوه[1]، والمقصد في الاصطلاح لا يخرج عن الدلالة المعجمية الأصلية المشار إليها في العبارة الآنفة الذكر، أما ما يستفاد إشارة فيرجع إلى إفادة ذلك المعنى بطريق غير مباشر، وبهذا الصدد يحقّ لنا التساؤل الآتي، هل وظّف النورسي في مستويي العبارة والإشارة تلك المعاني؟ هذا ما نحاول عرضه في الفقرة اللاحقة.

## ١) مستوى المصطلح وتوابعه

يستعمل بديع الزمان العديد من المصطلحات التي تصبّ في الدلالة العامة للمقصد أو المقاصد، إذ يستشف منها الأهداف المرجوة من رسائل النور،

١. انظر الصّحاح، تاج اللغة العربية، وصحاح العربية، الجزء الثاني ٥٢٤



obeikandl.com

وبطريق الاستقراء، خلصت إلى مجموعة هامة تخدم الغاية المرسومة، منها على سبيل المثال لا الحصر:المقصد والمقاصد، الهدف، الأهداف، العلّة الغائية، النتيجة، الفائدة، والوظيفة... مع شيء من التحفّظ في استعمال المصطلح سواء في دلالاته العامة أو دلالته في أدبيات بديع الزمان سعيد النورسي.

نبدأ العرض بذكر المصطلح المركزي (المقصد والمقاصد) ثم ننتقل إلى بيان سائر المصطلحات مع بيان صلتها بالمصطلحات المركزية في مقاصد رسائل النور.

**أ. المقصد والمقاصد**

لا خلاف بين قرّاء رسائل النور فضلا عن عشّاقها في أنّ مؤلّفها يرمي إلى تحقيق مقصد رئيس ومجموعة من المقاصد الفرعية البحت، التي قد تكون كلّية باعتبار تحقيقها لمراتب متعلّقة بالضروري من الدين، فهي بهذا الوجه كلّية أصلية تعبّر عن مرتبة الضروري أو ما يقرب من معناه، وقسم آخر منه كلّي ولكنّه دونه من جهة الرتبة، فهو أقرب إلى الحاجي منه إلى الضروري[1]، كتلك التي تتوقّف وظيفة التبليغ على تحقّقها، وقسم من رتبة ثالثة يمكن إلحاقه برتبة التحسيني، بحيث يؤدي فقده إلى عسر المعالجة بشكل إجمالي، فالأول كجعل الشريعة في أصل وضعها مراعية لأوضاع الناس، جالبة لسعادتهم في الدارين (الدنيا والآخرة)، قال الأستاذ عبد الله دراز في تعليقه على كتاب الموافقات للشاطبي "المقصد الأول هو أنّها (الشريعة) وضعت لمصالح العباد في الدارين"[2]، والثانية كمقصد الإفهام من وضع ألفاظ الشريعة وصيغ تبليغها، والثالثة ما يتطلّبه اليسر بجميع أشكاله.

---

١. الفكرة مقتبسة من الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ٢/٨-١٣

٢. انظر تعليق الشيخ عبد الله دراز على الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي ٢/٥

يتوجّه أولها إلى بيان أصل قصد الله في وضع التكاليف الشرعية المستفادة من القرآن الكريم والسنّة الشريفة، وقد عمل بديع الزمان على تجلية ذلك الأصل بالتركيز الكبير على بيان أنّ من أهمّ ما ترمي إليه رسائل النور (المعبّرة عن الشريعة) إثبات ارتباط الشريعة بمفهومها العام بمصالح العباد المعنوية والمادية، فمصالحهم المعنوية والمادية لا تُحقَّق بطريقة إنسانية هادفة واقتصادية إلا بالشريعة الغرّاء التي تعني الانسجام مع عناصر الكون المادية والمعنوية، لهذا كانت الآية المنظورة (الكون) متناغمة مع الآية المسطورة (الوحي)، وكلاهما يعمل في إطار نظام شامل ومتكامل يخدم في آخر خلاصة له النظام والانتظام الكوني الشامل، ومن مظاهر ذلك خدمة مصالح الإنسان العاجلة والآجلة، يؤكّد هذا المعنى قوله رحمه الله "إن لمتصرّف هذا العالم حكمةً عامةً عالية (وهي ولاشك مقصد المقاصد)، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء"[1].

يعرّج بعدها الأستاذ على شواهد وبراهين وحجج رعاية المصالح والفوائد في كلّ شيء، فيذكر دلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات، فقد تجلّت فيها الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية، وما تقتضيه من تلطيف المطيعين الملتجئين إلى جناحها، ليس هذا فحسب، بل يشاهد أنّ له عدالة محضة حقيقية بشهادات وضعه كلّ شيء في الموضع اللائق، وإعطاء كلّ ذي حق حقّه الذي يستعد له، وإسعاف كلّ ذي حاجة حاجته التي يطلبها – لوجوده أو حفظ بقائه – وإجابة كل ذي سؤال سؤاله، وخاصة:إذا سئل بلسان الاستعداد أو بلسان الاحتياج الفطري أو بلسان الاضطرار؛ فهذه العدالة تقتضي محافظة حشمة مالكيته، وربوبيته، بمحافظة حقوق عباده في محكمة كبرى، مع أنّ هذه الدار الفانية أقلّ وأحقر وأضيق وأصغر من أن تكون مظهراً

١. المثنوي العربي النوري ٩١

لحقيقة تلك العدالة، فلابد حينئذ لهذا الملك العادل والرب الحكيم ذي الجمال الجليل والجلال الجميل من جنة باقية وجهنم دائمة [١]، وفي كلّ ذلك أظهر مظاهر رعاية المقاصد في الخلق من جهة، والعناية بالمقاصد في رسائل النور.

كما أورد ذلك المعنى في خاتمة تعليقه على دليل من الأدلة العقيدية فيقول: "وزبدة هذا الدليل هي: إتقان الصنع في النظام الأكمل في الكائنات، وما فيها من رعاية المصالح والحكم، إذ النظام المندمج في الكائنات، وما فيه من رعاية المصالح والحكم، يدلّ على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفياً قاطعاً وهم المصادفة والاتفاق الأعمى"[٢]، معللا المسألة بالإتقان الذي لا "يكون دون اختيار. فكل علم من العلوم الكونية شاهد صدق على النظام، ويشير إلى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في أغصان الموجودات، ويلوح في الوقت نفسه إلى الحكم والفوائد المستترة في ثنايا انقلاب الأحوال وتغيّر الأطوار."[٣]

ولعلّ أوضح شاهد على تأكيد تلك الحقيقة ما ورد عنه في المجلّد الثامن من رسائل النور، حيث قال: "والخلقة مستلزمة لنتيجتها وهي الإنسان، إنّ الغاية من الخلقة ونتيجتها الحياة وذوو الحياة وأشرفهم الإنسان فهو نتيجة الخلقة."[٤]

من منطلق ما سبق بيانه، نخلص إلى التأكيد على أنّ المقصد الأعظم من رسائل النور هو خدمة الإنسان، ولا يخدم الإنسان نفسه إلا إذا اكتشف وظيفته التي بيّنتها الرسائل بنور القرآن الكريم، فتخاطبه الرسائل قائلة: "أيها الإنسان! المقصد الأسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه

١. انظر المثنوي العربي النوري ٩١
٢. المثنوي العربي النوري ٤٢٨
٣. المثنوي العربي النوري ٤٢٨
٤. صيقل الإسلام ١٧٤

تظاهر الربوبية، وأنّ الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات."[1]، ولهذا كان المقصد الأول في سياق آخر، الحقائق الإيمانية[2] تلك التي تمثّل بالنسبة للإنسان أعلى خدمة وأسماها، ذلك أنّها تدفع الخلقة إلى تحقيق التكليف الشرعي الذي تعدّ العبودية مضمونه الرئيس.

تحقيق مسعى أصل مقصد الشارع في التكليف يفرض الاهتمام بلغة التبليغ ومضمونه ومستواه، وهو الأمر الذي دفعه إلى تركيز جهده على تحقيق تفهيم المخاطبين (جمهور رسائل النور) في جو ثقافي وحضاري مخصوص، يلزم المبلّغ استصحابه في صياغة رسائل النور بأسلوب مخصوص، وهو ما ترك آثاره الجلية على صيغة رسائل النور منهجا وموضوعا، إذ الرغبة في تحقيق مقصد الإفهام يوجب مراعاة عقليات المخاطبين واستعداداتهم، زيادة إلى استصحاب المعطيات الثقافية والعلمية المؤثّرة في صناعة وعيهم وتكوينهم[3]، يشهد لهذا نصوص بديع الزمان النورسي نفسه.

قال رحمه الله: "ونحن هنا سنحاول أن نقرّب إلى الأفهام شيئاً من تلك الحقيقة العالية ببعض الأمثلة، التي تساعد على ذلك، وهي على النحو الآتي: إذ ما نظر إلى هذه الكائنات نظر الحكمة، بدت كأنّها شجرة عظيمة وفي معناها، فكما أنّ الشجرة لها أغصان وأوراق وأزاهير وثمرات، ففي العالم السفلي – الذي هو شقٌّ من شجرة الخلقة – تشاهد أيضاً أنّ العناصر بمثابة أغصانه، والنباتات والأشجار في حكم أوراقه، والحيوانات كأنّها أزاهيره، والأناسي كأنّهم ثمراته، فالقانون الإلهي الجاري على الأشجار يلزم أن يكون جارياً أيضاً

---

١. صيقل الإسلام ١٧٤

٢. الملاحق ١٤٨

٣. انظر كتابنا بديع الزمان النورسي وإثبات الحقائق الإيمانية – المنهج والتطبيق –، ٤٢ – ٤٨

على هذه الشـــجرة العظمى، وذلك بمقتضى اســـم الله "الحكيم".[١]

وقد نسج بديع الزمان وفق مسلك القرآن الكريم في منهج تقرير حقائقـــه، فجعل الإفهام مقصدا رئيسا من رسائل النور، إذ حسن الإفهام ولطف الإرشاد من الأسس المهمّة في الإعجاز القرآني، وهما نور من هدي القـــرآن الكـــريم، يقتضيان أن تُبيَّن الحقائق الكلية والدساتير الغامضة العامة، في صـــور جزئيـــة مألوفة للعوام الذين يمثلون معظم مخاطبي القرآن، وأن لا تبيّن لأولئك البـــسطاء في تفكيرهم إلاّ طرفاً من تلك الحقائق المعظمة وصوراً بسيطة منها.[٢]

"إنّ بيان القرآن في (الإفهام والتعليم) خارق وذو لطافة وسلاسة، حتى أنّ أبسط شخص عامي يفهم -بتلك البيانات- أعظم حقيقة وأعمقهـــا بيـــسر وسهولة[٣]." ويرجع ذلك المقصد إلى كون"القرآن الكريم خطاباً أزلياً، يخاطب به الله سبحانه وتعالى مختلف طبقات البشرية المصطفّة خلف العصور ويرشدهم جميعاً، فلابد أنه يدرج معاني عدة لتلائم مختلف الأفهام"[٤]، ذلك ما حـــاول بديع الزمان استحضاره حين صياغة رسائل النور.

ويرتبط تحقيق مسعى الإفهام بالعمل على تحقيق مقصد بيان مضمون التكاليف الشرعية والأحوال العارضة للأشخاص حين مباشرة تحقيقها وأثر كل ذلك على التكليف نفسه، وقد عمد النورسي إلى تحقيق القول فيها، منبّها إلى أصول الفكرة وسبل تصوّرها، وذلك ليبقى الإنسان مسئولا أمام التكاليف الشرعية. ومادام في الإنسان لطائف أخرى لا ترضخ لإرادة الإنسان كعدم رضوخها للتكاليف، بل لا تنقاد لتدبير العقل ولا تذعن لأوامر القلب والعقل

---

١. الكلمات ٦٩٢

٢. الكلمات ٢٧٢

٣. الكلمات ٤٤٩

٤. انظر الكلمات ٤٥٦، ٤٨٢، ٥٣٠، ٥٣١

لا يبقى مسؤولا أمام التكاليف الشرعية... بشرط ألاّ يصدر عنه شـــيء ينافي حقائق الشرع وقواعد الإيمان إنكاراً أو تزيّيفاً أو استخفافاً"[1] "ذلك أنّ تحقيق سعادة الدارين، وجلب لـــذّة لا يشوبها ألم، وأنس يخالط الشـــعور بالحقائق اللطيفة، إنّما ينال بالتزام التكاليف الشرعية وتقديرها بوســـاطة القلب المنتبه بدوام ذكر الله المســـتغرق الوقت كلّه أوجلّه على الأقل، بحيث تكون الغفلة اســـتثناء وليست قاعدة محكّمة، ويعينه على ذلك المنهج التربوي للطريقة. وبذلك تكون الطاعة والعبادة مثار اشتياق وحب، لا مثار تعب وتكليف."[2]

وعرّج بديع الزمان على مقاصد فرعية صرف للرسائل، ذكرها رحمـــه الله في سياقات كثيرة، تتعلّق في الغالب بالتعليق على قضايا ومسائل جزئية يقتضيها السياق أو الغاية التربوية[3]، منها إشارته إلى أهداف ومقاصد جزئية منخرطـــة في سلك المقاصد الأصلية، كقوله بأنّ "أقدس هدف لأقدس جمعية في العالم هو الاتحاد والأخوّة والطاعة والمحبة وإعلاء كلمة الله. فالجنود المؤمنـــون قاطبـــة يُدعون إلى هذا الهدف."[4]

تلك المقاصد المشـــار إليها بقوله: "أقدس هـــدف لأقدس جمعية في العالم هو الاتحاد والأخوّة والطاعة والمحبة وإعلاء كلمة الله" تمثّل غايات جزئية مقارنة إلى المقصد الرئيس المعبّر عنه برعاية مصالح العباد.[5]

---

١. انظر المكتوبات ٥٨٦

٢. انظر المكتوبات،٥٩٢

٣. انظر الكلمات ٥٩٦، ٦٠٨، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٥١، ٧٢٣، ٧٢٨، ٧٣٢، ٧٣٧؛ المكتوبات ٤٤؛ إشارات الإعجاز ٥٩، ٦٠؛ الملاحق ٣٣١؛ صيقل الإسلام ١٢٠، ١٢١، ١٣٥، ١٥٩، ١٦٢

٤. سيرة ذاتية ١٠٧

٥. العبارة واضحة إذ القصد التأكيد على أنّها جزئية مقارنة إلى المقاصد الأصلية، وإن كانت من حيث هي قد تكون كلية أصلية.

بعد عرض تعبير المقاصد عن نفسها لفظا ومعنى وإشارة واضحة بيّنة، يحسن بنا الانتقال إلى بيان المصطلحات المنخرطة في سلك خدمة تلك الحقيقة، فنبدأ بعرض صلة المقصد بتلك المصطلحات، ومظاهر الدلالة على قصد المقصد في تلك المصطلحات.

**ب. الغاية والمقصد**

تستعمل رسائل النور مصطلح الغاية في كثير من الأحيان تعبيرا عن المقاصد المتوخاة من التأليف، وقد انتهى بديع الزمان إلى الاعتداد بها ولكن بشروط، منها؛ أن تكون الغاية واضحة ومعتبرة، معتدّا بها، ومقصودة في الخطاب ومهمّة ومخصوصة، قال رحمه الله: "والغاية فتلزم أن تكون معتدّة ومعتبرة ومقصودة ومهمّة، ومخصوصة[1]، وإذا تعذّرت تلك الشروط لا يلتفت إليها.

كما عبّر عنها في سياقات أخرى بالعلّة الغائية، واشترط فيها كسابقتها مجموعة من المواصفات، مواصفات تجعلها معدّة للتأثير حال أخذها بعين الاعتبار، ورد عنه في سياق التعليق على نظم الآية: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهدِي بِهِ كَثِيراً﴾، قوله: "هو: أنّها جواب عن صورة استفهامهم، فلغاية الإيجاز نزلت الغايةُ والعاقبةُ منزلة العلة الغائية كأنهم يسألون ويقولون: لأي شيء كان هكذا؟ ولِمَ لم يكن إعجازه بديهيا؟ ولِمَ لم يكن كونه كلام الله ضرورياً؟ ولِمَ صار معرض الأوهام بسبب هذه الأمثال؟ فأجاب القرآن بقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهدِي بِهِ كَثِيراً﴾، ويؤكّد في السياق نفسه على استحضار المقصد، يشير إلى هذا المعنى قوله: أي: لأجل (لقصد أو مقصده كذا...) أنّ من تفكّر فيه بنور الإيمان ازداد نوراً. ومن تفكّر بظلمة الكفر والتنقيد ازداد ظلمة، وهذا

---

١. صيقل الإسلام ٢٤٨

لأجل أنّه نظريّ ليس بديهياً، منبّها في المقام نفسه على القصد،يشر إليه، قوله:وهذا لأجل (بقصد) تفريق الأرواح الصافية العلوية عن الأرواح الكدرة السفلية (بضم السين) وهذا لأجل (لقصد) تمييز الاستعدادات العالية بالنشوء والنماء عن الاستعدادات الخبيثة، وهذا لأجل تمييز الفطرة الصحيحة بالتكمّل والمجاهدة والاجتهاد عن الفطرة المتفسخّة الفاسدة، وهذا لأجل أنّ امتحان البشر يستلزمه، وذلك لأجل أنّ الابتلاء يقتضيه.[1]

تلاحظ أنّه وظّف في المقطع القصير الآنف الذكر لفظ (لأجل) بمعنى المقصد سبع مرات، وقد وظّفه في الفقرة السابقة بدلالات مختلفة متنوّعة:

مقصد جزئي متعلّق ببيان تربوي له بُعدٌ عقلي ومنهجي ظاهر، يشهد له التأكيد على أثر التفكّر بنور الإيمان في الرؤية الموضوعية لعالم الأشياء، وبيّن في السياق نفسه أثر التفكّر بظلمة الكفر في تكريس النظرة غير الموضوعية للعوالم نفسها، يشهد له قوله: لأجل (لقصد أو مقصده كذا...) أنّ من تفكّر فيه بنور الإيمان ازداد نوراً. ومن تفكّر بظلمة الكفر والنقد غير الراشد ازداد ظلمة.

مقصد جزئي آخر أكّد فيه أيضا أن المسائل النظرية تحتاج إلى خلفية نظرية صحيحة إضافة إلى مسلك منهجي صحيح وموضوعي، يؤكّده قوله: وهذا لأجل أنّه نظريّ ليس بديهياً.

مقصد جزئي ثالث مفاده إفادة ذلك المسلك في تفريق الأرواح الصافية العلوية عن الأرواح الكدرة السفلية، وامتدادا له جاء مقصد جزئي رابع غرضه تمييز الاستعدادات العالية بالنشوء والنماء عن الاستعدادات الخبيثة.

تخدم المقاصد الجزئية السابقة مقصدا جزئيا رابعا، تميّزت بموجبه الفطرة الصحيحة بالتكمّل والمجاهدة والاجتهاد عن الفطرة المتفسخّة الفاسدة..

---

١. إشارات الإعجاز ٢٠٦

تنتهي المقاصد الجزئية السالفة الذكر إلى خدمة مقصد جزئي خامس مفاده أنّ امتحان البشر يستلزمه، وهذا بدوره يؤكّد أنها من مقتضيات الابتلاء.

كما اعتبر رحمه الله جملة معيّنة بمثابة فهرس للغايات الأساسية للقرآن الكريم، فقد ذكر تلك المعاني في سياق التعليق على ما تضمّنته البسملة، فقال: "وكذا في "البسملة" جهات: من الاستعانة والتبرك والموضوعية بل الغايتية والفهرستية للنقط الأساسية في القرآن."[1]، ويوضّح ذلك المعنى بشكل مقنع، إذ بيّن في سياق الحديث عن المقصد بعنوان (الغاية)، أنّ الخلقة مستلزمة لنتيجتها وهي الإنسان وهذا يدل على أنّ الغاية من الخلقة ونتيجتها الحياة وذوو الحياة وأشرفهم الإنسان فهو نتيجة الخلقة.[2]

وذكر في مقام آخر أنّ العلّة الغائية تعبّر عن الفائدة الجزئية "والعلة الغائية فيها الفائدة الجزئية"[3]، والفائدة الجزئية في حقيقة الأمر مقصد جزئي يندرج في إطار المقاصد الكبرى، كما سنبيّنه لاحقا، إن شاء الله.

**الغاية صحيحة والهدف خطأ**

يستعمل الغاية و الهدف في سياق الدلالة المعجمية اللغوية أو الدلالات الاجتماعية العامة بمعنى واحد تقريب، بحيث لا يتصوّر الغاية صحيحة والهدف غيرها في السياق نفسه، أدبيات النورسي تستعمله وفق دلالات خاصة، تجعل الانفكاك بين الغاية والهدف متاحا وممكنا، و متوقّعا، و ذلك بسبب الدلالة الخاصة المختارة في رسائل النور.

استعمل بديع الزمان الغاية والهدف في بعض نصوص رسائل النور بمعنيين

---

١. إشارات الإعجاز ٤٠

٢. انظر صيقل الإسلام ١٧٤

٣. إشارات الإعجاز ٢٢٣

مختلفين، فكانت الغاية معبّرة عن المقصد الأصلي، والهدف معبّرا عن المقصد المرحلي الذي قد يكون صحيحا مناسبا للغاية وقد لا يكون كذلك، وأحسن مثال لبيان هذه المعاني قوله: "لقد أحسّ" سعيد القديم "ما أحسّه عدد من دهاة السياسة وفطاحل الأدباء، بأنّ استبداداً مريعاً مقبلٌ على الأمة، فتصدّوا له، ولكنّ هذا الإحساس المسبَق كان بحاجة إلى تأويل وتعبير، إذ هاجموا ما رأوه من ظل ضعيف لاستبدادات تأتي بعد مدة مديدة وألقت في نفوسهم الرعب. فحسبوا ظل استبدادٍ – ليس له إلاّ الاسم – استبداداً أصيلاً، فهاجموه، فالغاية صحيحة إلاّ أن الهدف خطأ."[1]

استعمل النورسي الهدف بمعنى المقصد الفرعي أو الجزئي الذي قد يخطئ المرء في تصوّره أو تمثّله، كالذي وقع لدعاة التحرر من المسلمين والأتراك — في العصر الأخير، "فقد أحسوا بالاستبداد – بالحس قبل الوقوع – فصوّبوا له سهامهم وهاجموه بشدة، إلا أنّهم انخدعوا انخداعاً كلياً، وأخطأوا الهدف، إذ هاجموا في غير موقع الجبهة"[2].

أشار رحمه الله إلى التمييز بين الغاية والهدف، فقد تكون الغاية كمقصد كلي نبيلة، إلا أن الخلوص إلى تحقيق ذلك المقصد يقتضي في إطار إجاءات الزمان والمكان مواجهته في سياق ظهوره العيني المحدد، إلاّ أنّ الناس قد يخطئون في مواجهة ما كان سببا في تعطيل القصد، فيهاجمون ما يعتقدونه معطّلا إلا أنّهم يخطئون الهدف مع صحة المقصد، أي يقرّ الأستاذ بصحة القصد ونبالته، ولكن الهدف غير صحيح، كأنّه يشير إلى أنّ صحة القصد لا تغني عن وجوب

١. الملاحق ١٢٦؛ سيرة ذاتية ٧٦

٢. الشعاعات ١٢٣

العمل العلمي الدقيق المحدد للهدف الموافق للمقصد وفق ما يصادفه الباحث أو المبلّغ من ضغوط المكان والزمان.

من مقتضيات بيان الصلة بين المقصد والهدف عرض العلاقة بينهما، من هنا سنتناول في النقطة اللاحقة الصلة بينهما.

### ج. الهدف والمقصد

استعمل بديع الزمان الهدف بمعاني مختلفة، فجعله في مقام بمعنى القصد[١]، ويُرى أيضا ذلك الاستعمال في سياق التعليق على بعض الأحداث حيث يقول: "عندما نادى من كانوا يجودون بأرواحهم للإسلام من أصحاب الهمم بالدعوة إلى المشروطية[٢]، والذين كانوا يعتقدون أنّ نعمة المشروطية غاية المنى وجوهر الحياة، وجدّوا في تطبيق تفرعاتها وفق الشريعة مرشدين المسؤولين في الدولة وموجّهين لهم للتوجه إلى القبلة في صلاة العدالة طالبين إعلاء الشريعة المقدسة حقاً بقوة المشروطية، وإبقاء المشروطية بقوة الشريعة، محمّلين مخالفة الشريعة السيئات السابقة جميعَها، فما أن نادى هؤلاء بهذا النداء وقاموا بتطبيق بعض الأمور الفرعية إذا ببعض مَن لا يميّز يمينه عن شماله يبرز أمامهم ويجابههم ظناً منهم أنّ الشريعة تشدّ أزر الاستبداد – حاشاها – فقلّدوا كالببغاء منادين: "بأنّا نطالب بالشريعة" فاختفى الهدف ولم يعد يُفهم القصد الحقيقي، وانجر الوضع إلى ما رأيتم. ومعلوم أنّ الخطط قد مُهّدت وحيكت من قبل. فلما آل الأمر إلى هذا هجم بعض من يتقنع كذباً بالحمية على ذلك الاسم السامي، واعترضوا متعدين عليه. فدونكم نقطة سوداء مظلمة جديرة بالاعتبار"[٣].

---

١. صيقل الإسلام ٢٧

٢. النظام الدستوري.

٣. صيقل الإسلام ٤٠٦

يلاحظ في هذا السياق توظيف الهدف بمعنى القصد الحقيقي، كأنّه يجعل للمصطلحين حقيقة واحدة، ووظّف في مقام آخر بمعنى الهدف الجزئي الذي يعدّ شرطا رئيسا في تحقيق الهدف الكلي أو الأصلي، يستشف هذا المعنى من قوله: "إنّ أسمى جمعية وأقدسها في الوقت الحاضر، هي جمعية الجنود المؤمنين، فجميع الذين انخرطوا في سلك الجندية المؤمنة المضحية ابتداءً من الجندي إلى القائد هم داخلون في هذه الجمعية. إذ إن أقدس هدف لأقدس جمعية في العالم هو الإتحاد والأخوة والطاعة والمحبة وإعلاء كلمة الله. فالجنود المؤمنون قاطبة يدعون إلى هذا الهدف،ثم إنّ هؤلاء الجنود يمثّلون المراكز المحرّكة.

### د. النتيجة والمقصد

تمثّل النتيجة باعتبار المآل مقصدا جزئيا، ولكنّه يمكن أن يكون مقصدا كليا، إلاّ أنّ الخلوص إلى النتيجة الصحيحة يقتضي وجود مقدّمات من وزنها وقيمتها، بشرط أن تكون المقدمات أوضح من النتيجة نفسها، وتكون صلتها بها واضحة جلية، وإلاّ امتنع أن تكون دالة عليها.

وبهذا الصدد ترى أنّ رسائل النور استعملت النظر في الموجودات مقصدا جزئيا لنيل جلّ المقاصد الأصلية (التوحيد، النبوة، الحشر، العدالة)، وقد استفادت الرسائل ذلك التوظيف من استعمالات القرآن الكريم، منها تأكيد بديع الزمان على أنّ القرآن الكريم يبحث في الكائنات استطرادا (وهذا مقصد فرعي وليس مقصدا أصليا) للاستدلال على ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى (مقصد أصلي)، وعلى هذا يستخدم الموجودات دليلاً وبرهاناً، ومن شرط الدليل أن يكون ظاهراً وأظهرَ من النتيجة أمام نظر الجمهور[1].

---

١. انظر الكلمات ٢٦٦، المكتوبات ٢٦٩

والنتيجة باعتبارها مقصد مآل التصرّف والاختيار، اعتبر بديع الزمان التنبيه إليها من الوسائل المقنعة بجدوى التصرّفات المختارة أو عدم جدواها، لهذا يمكن اعتباره تنبيها بالمقصد المعبّر عنه في هذا السياق بالنتيجة، كأنّه يقول ناصحا المسلم، إذا أردت اكتشاف جدوى أفعالك فتساءل عن النتيجة المنتظرة منها، فإن وجدتها طيّبة حسنة أقبلت، وإن وجدت غير ذلك أدبرت، يقول بديع الزمان سعيد النورسي: "إذا أردت أن تنبّه المخاطب على عدم الفائدة في فعل نفسه بوجه لطيف مقنع لابد أن تستفهم ليتوجه ذهنُه إلى فعله فينتقل منه إلى النتيجة فيطمئن"[١]، وقد عبّر عنها في مقام آخر بالربط بين النتيجة والمقدّمة[٢].

ونظرا للصلة الموضوعية بين المقدّمة والنتيجة، نبّه النورسي إلى ذلك في قوله: "وجود الثمرة قطعي ويقين كقطعية ويقين وجود الغصن.. ووجود النتيجة يقين كيقين وجود السلسلة، ووجود المخزن يقين كيقين وجود المحاصيل، ووجود الحوض يقين كيقين وجود النهر، ووجود موضع التجلي يقين كيقين وجود الرحمة والقهر."[٣] إنّها علاقة لزوم المقدّمة للنتيجة.

حتى غدت العلاقة بين النتيجة والمقدّمة مترابطة لا تقع اعتباطا، ولم تحدث لغير ما مغزى، ويتيقّن بأنّ كل شيء حدث له وكأنّه كان ينبغي أن يحدث على الشكل الذي حدث به وبالطريقة عينها التي حدث بها، وأنّه النتيجة المتوقعة لسلسلة من المقدمات التي سبقته فلا تقبل نتيجة سواها، فالأحداث أو الأقدار – تأنيساً لبني البشر – لا تأتي مغايرة لمن تقع لهم، بل تأتي شبيهة بهم وبأعمالهم، وبما ينطوي عليه كيانهم البشري من أصول البطولة أو الخسّة، ومن

١. إشارات الإعجاز ٧٦

٢. إشارات الإعجاز ٢٢٨

٣. المكتوبات ١٢

جذور النقاء أو الدنس. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: ٨٤) فعلى شاكلة هذه الأعمال، وبسببها وعلى قدْرِها يقع القدر، وينفذ القضاء."[١]

يستشف مما سلف تقريره أن النتيجة في سياقات كثيرة من رسائل النور ترد بمعنى المقصد، فعبّرت أحيانا عن المقصد الكلي ولكنّها في الغالب تعبّر عن المقاصد الفرعية أو الجزئية، إلا أنّها في الغالب تكون من طبيعة تربوية منهجية بالدرجة الأولى، أكثر مما تتناول بالعرض تفاصيل متعلّقة بمسألة اجتماعية معيّنة، أي يركّز عرضها على الجوانب المنهجية ذات البعد التربوي أكثر من عرض قضايا اجتماعية فرعية، وإن عرضها أحيانا في مثل تلك السياقات فهي استثناء وليست قاعدة عامة.

عرض المقصد الكلي[٢] بعنوان النتيجة في مثل قوله: "إنّ الحقائق الاثنتي عشرة السابقة يؤيّد بعضها البعض الآخر، وتكمل إحداها الأخرى وتسندها وتدعمها، فتتبيّن النتيجة من مجموعها واتحادها معاً. فأيّ وَهْم يمكنه أن ينفذ من هذه الأسوار الاثني عشر الحديد، بل الألماس المنيعة ليزعزع الإيمان بالحشر المحصّن بالحصن الحصين"[٣].

### هـ. الحكمة والمقصد

يذكر النورسي أنّه يتراءى من الحكمة القصد، كأنّها قصد المقصد، "نعم، إنّ حُلّة "الحكمة" التي يتراءى منها القصد والشعور والإرادة قد أسبغت على الكون كلّه وجُلّلت كل جوانبه. وخُلِعَتْ على حلة الحكمة هذه حلّةُ "العناية" التي تشف

١. المثنوي العربي النوري ٢١

٢. كلي بحكم اندراج جزئيات فرعية خلص إلى تقعيدها باستقراء وتتبّع الجزئيات في سياق ظهورها.

٣. الكلمات ٩٨

عن اللّطف والتزيين والتحسين والإحسان، وعلى هذه الحلة القشيبة للعناية ألقيت حلّةُ "الرحمة" التي يتألق منها بريق التودّد والتعرف والإنعام والإكرام وهي تغمر الكون كلّه وتضمه. وصفَت على هذه الحلّة المنوّرة للرحمة العامة"[1].

ووُظّفت الحكمة في رسائل النور بوصفها طريقا إلى اكتشاف المقاصد" نعم، إنّ هذه الموجودات، ابتداءً من الذرات إلى الشموس، سواءً أكانت أفراداً أم أنواعاً وسواءً أكانت صغيرة أم كبيرة، قد ألبست ثوباً رائعاً جداً، نُسج هذا الثوب من قماش "الحكمة" المزيّن بنقوش الثمرات والنتائج والغايات والفوائد والمصالح.. وأكسيت بحلّة "العناية" المطرزة بأزاهير اللطف والإحسان قدّت وفصلت حسب قامة كلّ شيء ومقاس كل موجود، وعلى حلّة العناية هذه قُلّدت شارات "الرحمة" الساطعة ببريق التودّد والتكرّم والتحنّن، والمتلألئة بلمعات الإنعام والأفضال، وعلى تلك الشارات المرصّعة المنوّرة نُصبت مائدةُ "الرزق" العام على امتداد سطح الأرض بما يكفي جميع طوائف ذوي الحياة وبما يفي سد جميع حاجاتهم."[2]، فكان القصد من رؤية الحكمة اكتشاف قصد واضعها في أصل وضعها.

وقد استعملت الحكمة دليلا على قصد الحكيم وهي برهان ساطع على أصول المقاصد وفروعها، بحسب زاوية النظر، "فالنظر في الكون يشير إشارة واضحة إلى حكيم مطلق الحكمة، وكريم مطلق الكرم، ورحيم مطلق الرحمة، ورزاق مطلق الرزق."[3] وما أسماء الله الحسنى إلا تعبيراً عن قصود في الأسماء والأفعال المتجلية عنها في حياة الإنسان المادية والمعنوية.

---

١. الكلمات ٣٣٨

٢. الكلمات ٣٣٩

٣. الكلمات ٣٣٩

يعبّر عن بعض المقاصد الجزئية بالحكمة المتجلية في بعض مظاهر تجليات الأسماء الحسنى، كالتجليات المستفادة من اسم"الجواد"، "ففي تعدد الغايات هذا يكمن سر التوفيق بين "الحكمة والجود" أي بين "الاقتصاد والسخاء المطلقين" اللذين يبدوان كالضدين والنقيضين. وتوضيح ذلك: إذا لوحظت غاية بمفردها فإنّ الجود والسخاء يسودان آنذاك، ويتجلى اسم "الجواد"، فالثمار والحبوب حسب تلك الغاية المفردة الملحوظة لا تعد ولا تحصى. أي أنّها تفيد جوداً مطلقاً وسخاء لا حصر له. أما إذا لوحظت الغايات كلّها فإنّ الحكمة هي التي تظهر وتهيمن، ويتجلى اسم "الحكيم". فتكون الحِكَم والغايات المتوخاة من ثمرة لشجرة واحدة بعدد ثمار تلك الشجرة، فتتوزع هذه الغايات على الأقسام الثلاثة التي سبق ذكرها، فهذه الغايات (المقاصد) العامة تشير إلى حكمة غير نهائية، واقتصاد غير محدد، فتجتمع الحكمة المطلقة مع الجود المطلق اللذان يبدوان كالضدين"[1].

كما تُعبّر أحيانا عن المقاصد الخفية المستفادة بطريق التأمّل، مثال ذلك:"إن إحدى الغايات من الجيش هي المحافظة على الأمن والنظام، فإذا نظرت إلى الجيش بهذا المنظار فسترى أنّ هناك عدداً فوق المطلوب منه. أمّا إذا نظرنا إليه مع أخذنا الغايات الأخرى بنظر الاعتبار كحفظ الحدود، ومجاهدة الأعداء وغيرها، عند ذلك نرى أنّ العدد يكاد يفي بالحد المطلوب.. فهو إذن توازن دقيق بميزان الحكمة. إذ تجتمع "حكمة" الحكومة مع "عظمتها". وهكذا يمكن القول في هذه الحالة: أنّ الجيش ليس فوق الحد المطلوب."[2]

ولو نظر إلى الحكمة من زاوية الوظيفة التربوية العامة لكانت مقصودة في

---

١. الكلمات ٧٩

٢. الكلمات ٧٩

سياق آثارها المتجلية في الأفعال الإلهية في الكون، ولكانت بهذه الصفة مقصدا أساسيا من مقاصد الله في أفعاله الكونية، يرى هذا المعنى في تأكيد بديع الزمان على مقتضيات الحكمة الإلهية في الكون، من نحو قوله: "إنّ الحكمة الإلهية وحاكميتها، التي لا تهمل أصغر مخلوق دون أجر، أو دون كمال، أو دون مقام، لما يقوم به من وظيفة، كيف تهمل مأموريها ومستخدميها الكثيرين جداً، الذرات.. دون نور، أو دون أجر."[1]، كما يتجلّى المعنى ذاته في قوله: "ولأجل تدريس مثل هذا الكتاب وتعليمه تعليماً كلياً وشاملاً جميع حقائقه، تقتضي الحكمة سيراً وسلوكاً في غاية السمو والرفعة."[2]

### و. الفائدة والمقصد

استعملت رسائل النور الفائدة بمعنى المقصد في كثير من الأحيان، واستعملتها أيضا بمعنى الغاية المرحلية التي يتوخّى بلوغها بأعمال منجزة من طبيعة خاصة أو نوع خاص، كأنّها تكوّن دافع التوجّه إلى الفعل، وهي بهذه الصفة بمثابة مقاصد مرحلية تمثّل قوّة دفع لإنجاز عمل مخصوص متعلّق بها تعلّقا مباشرا، يتّضح الأمر بالمثال الآتي: "رأيت عدداً من الأشخاص – من أهل التقوى – يرغبون في الدين ويحبون أن يقيموا أوامره كي يوفقوا في حياتهم الدنيوية ويفلحوا في أعمالهم. حتى أنّ منهم من يطلب الطريقة الصوفية لأجل ما فيها من كرامات وكشفيات. بمعنى أنّه يجعل رغبته في الآخرة وثمارها تكئة ومرتبة سلّم للوصول إلى أمور دنيوية، ولا يعلم هذا أنّ الحقائق الدينية التي هي أساس السعادة الدنيوية كما هي أساس السعادة الأخروية، لا تكون فوائدها الدنيوية إلاّ مرجّحة ومشوّقة (أي تكوّن دافعا جزئيا ومقصدا مرحليا) إلا أنّها لو ارتقت تلك الفائدة إلى مرتبة العلة لعمل البر،

---

١. انظر الكلمات ٦٦١، ٦٦٣، ٦٨٤

٢. الكلمات ٦٨٨

فإنها تبطله، وفي الأقل يفسد إخلاصه، ويذهب ثوابه. وقد ثبت بالتجربة أنّ أفضل منقذ من ظلم هذا العصر المريض الغادر المشئوم ومن ظلماته الدامسة، هو النـــور الذي تشعه رسائل النور بموازينها الدقيقة وموازناتها السديدة.يشهد على صدق هذا أربعون ألف شاهد."[1]

لهذا يجب أن تنـــزل تلك المقاصد (العرضية) الجزئية المعبّر عنها بالفوائـــد منـــزلتها الحقيقية، وأن لا نجاوز بها طورها، لأنّنا إن تجاوزنا بها ذلك، أفضت إلى تعطيل نتائجها السننية، بل ونسف المقاصد الأصلية، مما سيؤثّر على تلـــك المقاصد الجزئية (الفوائد) في قابل الأيام.

## ٢) رتب المقاصد وطرق التعبير عنها في رسائل النور

تعدّدت وتنوّعت رتب مقاصد رسائل النور، وينظر إليها باعتبارات مختلفة، فهي باعتبار المضمون كلية وفرعية (جزئية) أو ما يدور في فلكهما كالأصـــلية والمقصد العالي، ومقصد المقاصد والمقصد الحقيقي.

كما يطلق مقابلها على مقاصد جزئية متعلّقة بقضايا ومسائل جزئية تفهـــم في سياقها الذي ذكرت فيه، وهي باعتبار المقصد في المخاطب، ظاهرية أو باطنيـــة أو جامعة بينهما، وإضافة إلى ما سلف يمكن أن ينظر إليها – من زاوية وظيفية صرف – باعتبار مصدرها والأصل في وضعها، فيقال مقاصد إلهية ذلك أنّها إلهية في أصل وضعها، إلا أنّ الضرورات المنهجية تنبّه إلى المقاصد الإنسانية والمقاصد في عـــالم النبات وعالم الجماد، بل وفي كلّ شيء في الكون، والتنبيه إليها لا باعتبارها مناقضة أو مزاحمة للمقاصد الإلهية بل باعتبارها وجها من وجـــوه بيـــان مقاصـــد الله في الإنسان، فهي أشبه بالتوضيح للمقاصد الإلهية المتجلية في الإنسان.

---

١. سيرة ذاتية ٣٠٩

**أ. مختلف مستويات المقاصد**

استعمل بديع الزمان النورسي في التعبير عن المقاصد أساليب مختلفة، تعبّر بمجموعها عن رتب المقاصد في رسائل النور، نقتصر في هذا المقام على ما صرّح به في الرسائل.

**– المقاصد الإلهية:**

استعمل بديع الزمان مصطلح المقاصد الإلهية تعبيرا عما لاح له من تجليات الغايات الربانية من خلق الكون في عناصره المادية والمعنوية، استشف ذلك الأمر من القرآن الكريم أهم مصدر للحقائق الإيمانية والكونية، تلك الحقائق التي يخلص إلى اكتشاف حقيقتها كل عاقل، بل جميع أرباب العقول، بما يلقّنه القرآن الكريم من دروس مقدسة سامية وإرشادات حكيمة، وليبيّن بأجمل صورة وأجلاها المقاصد الإلهية بالقرآن العظيم، حيث بيّن أنّ للصانع "الحَكَم الحكيم"، وليستقبل بأكمل مقابلة وأتمها مظاهر الحكمة البالغة والجمال والجلال المتجلية في الآفاق. فإنسانٌ هذه مهمته، إنسان ضروري وجوده (أي يمثّل مقصدا أساسيا في الكون)، بل يستلزمه هذا الكون، كضرورة الشمس ولزومها له".[1]

وفي سياق الحديث عن تلك المقاصد اعتبر الإنسان أعظم مقصد من المقاصد الإلهية في الكون، "وقد جعله الخالق الحكيم مؤهّلا لإدراك الخطاب الرباني، واختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصطفى من بين الإنسان المكرّم مَن هو أكمل وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضع خطابه الجليل باسم النوع الإنساني كافة، بل باسم الكائنات جميعاً".[2]

---

١. اللمعات ٥٣٧

٢. اللمعات ٥٥٥

ووظّف العنوان نفسه في سياقات مختلفة منها على سبيل المثال لا الحصر قوله: "إنّ هذا الكون مثلما يدلّ على صانعه، وكاتبه، ومصوّره الذي أوجده، والذي يديره، ويرتبه، ويتصرّف فيه بالتصوير والتقدير والتدبير كأنّه قصر باذخ، أو كأنّه كتاب كبير، أو كأنّه معرض بديع، أو كأنّه مشهر عظيم، فهو كذلك يستدعي لا محالة وجود مَن يعبّر عما في هذا الكتاب الكبير من معانٍ، ويعلم ويعلِّم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلّم الحكم الربانية في تحولاته وتبدلاته، ويدرّس نتائج حركاته الوظيفية، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من الموجودات، أي يقتضي داعياً عظيماً، ومنادياً صادقاً، وأستاذاً محققاً، ومعلماً بارعاً؛ فالكون – من حيث هذا الاقتضاء – يدل ويشهد على صدق هذا النبي ﷺ.[1]

ويظهر أنّ بديع الزمان عبّر عن الرتب بأساليب وألفاظ متنوّعة، تحمل في عباراتها الدليل على مستويات مختلفة من المقاصد، منها على سبيل المثال لا الحصر، المقصد الحقيقي، مقصد المقاصد، المقاصد الكلية ومقابلها المقاصد الجزئية.

**– المقصد الحقيقي:**

استعمل بديع الزمان رتبة المقصد الحقيقي بمعنى مقصد المقاصد، صرّح بهذا المعنى في سياق تعليقه على الشرور والقبائح الجزئية المبثوثة في الكون، فيقول: "وأمثال هذه الشرور والقبائح الجزئية خُلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكلّيين، وهكذا يثبت بالاستقراء التام أن المقصد الحقيقي في الكون والغاية الأساسية في الخلق إنّما هو :الخير والحسن والكمال، لذا فالإنسان الذي لوّث وجه الأرض بكفره الظالم وعصيانه الله لا يمكن أن يفلت

١. المكتوبات ٢٨٤

من العقاب، ويذهب إلى العدم من دون أن يحق عليه المقصود الحقيقي في الكون. بل سيدخل سجن جهنم." [1]

يؤكّد مضمون المصطلح "المقصد الحقيقي" البُعد الإنساني لرسائل النور، إذ لخّص الأستاذ المقصد الحقيقي في الكون والغاية الأساسية في الخلق بأسلوب واضح بيّن، أكّده حصرا في الخير والحسن والكمال، سواء تعلّق الأمر بتذكير المؤمن تحبيبا أو ترهيب الكافر تنفيرا له عما هو عليه من تصوّرات خاطئة وتصرّفات طائشة.

**– مقصد المقاصد:**

استعمل في سياق آخر ما يقرب من المعنى السابق، وسماه مقصد المقاصد مبيّنا فيها الغايات النهائية والمقاصد الكبرى، يشهد لهذا الاستعمال قوله: "إنّ الذي يعطي الكلام عظمة وسعة هو: أنّ المقاصد القادمة من أبعد هدف وأعلاه – وهو مقصد المقاصد – يرتبط بعضها ببعض، ويكمل أحدها نقصان الآخر، ويؤدي الواحد منها حق جاره، حتى كأنّ وضع هذا في موضعه يمكّن الآخر في مكانه، ويقرّ الآخر في مستقره، وهكذا كلٌ يأخذ محله الملائم له، فتنصب تلك المقاصد في قصر الكلام المشيد بملاحظة نسب يمين هذا وشماله وكل جهاته. وكأن المتكلم استعار عقولاً إلى عقله للتعاون، وغدا كل مقصد من تلك المقاصد جزءاً تشترك فيه التصاوير المتداخلة، بمثل ما إذا وضع رسام نقطة سوداء في صور متداخلة، فإنها تكون عين هذا ومنخر ذاك وفم هذا وشامة ذلك، وهكذا ففي الكلام الرفيع نقاط أمثال هذه.[2]

---

١. صيقل الإسلام ٥٠٢

٢. صيقل الإسلام ١١٠

**– المقصد العالي:**

أورد الأستاذ في مقام آخر استعمالا مميّزا يكاد يكون فريدا في السياق العام لرسائل النور، فقد استعمل مصطلح المقصد العالي، ومن مضامين ذلك المقصد النبيل التأكيد على أنّ أفضل خصالنا ومقتضى ديننا هو أن نقول بروحنا وجسدنا ووجداننا وفكرنا وبكل قوانا: "إن متنا، فأمتنا الإسلامية حية، وهي باقية خالدة فلتحيا أمتنا ولتسلم، وحسبنا الثواب الأخروي، فإنّ حياتنا المعنوية التي في حياة الأمة تحيينا وتعيّشنا، وتجعلنا في نشوة ولذة في العالم العلوي، فينبغي أن نجعل الدساتير النورانية للنور والحميّة لنا دستوراً .

يتطلّب هذا المسلك أن نحفر بالفكر الديني الإسلامي في جوف الأمة حوضاً للمعرفة والمحبّة – كحوض الكوثر – ونسدّ بالمعارف والعلوم ثغرات تحتها يسيل منها الماء، ونفتح بالفضيلة الإسلامية المسائل التي تصب الماء فيه. هناك نبع كبير ضائع أسيء استعماله إلى يومنا هذا فجرى في الأرض السبخة الرملية فما أدّى إلاّ إلى ترعرع متسوّلين عجزة، فشيّدوا مجرىً جميلاً له وصُبوا الماء بالمساعي الشرعية إلى ذلك الحوض ثم سقوا بستان كمالاتكم به، فهذا نبعٌ لا ينضب ولا ينفد أبداً"[1].

يفرض تبني المقصد العالي التركيز على خدمة الأمّة لا الأفراد، فينبغي التأكيد على أنّ الإحسان إنّما يكون إحساناً حقاً إن كان للأسرة الإنسانية أي للنوع أو للمحتاج أو الفقير، وعنده يكون السخاء سخاءً حقاً، وإذا كان السخاء لأجل الأمة، أو للفرد الذي تعد خدمته خدمة الأمة، فهو سخاء جميل، ولكن إن كان لغير المحتاج يعوّده الكسل والتسوّل والخلاصة: إن الأمة باقية، بينما الفرد فانٍ.

---

١. انظر صيقل الإسلام ٤١٦

خدمة الأمّة إذاً مقصد أعلى من خدمة الأفراد، من ثمّ كانت خدمة الأمة خدمة للأفراد ولا عكس، لهذا ختم الأستاذ كلامه، بالتأكيد على أنّ هذا الزمان أكّد بدوره وكشف بما لا يدع مجالا للشك احتياج الملّية وفتح الباب لهذا المقصد العالي.[1]

وتعبّر مصطلحات المقصد العالي والمقصد الأصلي والمقصد الكلي عن وجه من وجوه مقاصد القرآن الكريم، والتي سمّاها بديع الزمان بالمقاصد الأساسية للقرآن الكريم.

**ب. المقاصد الكلية والجزئية**

أول مظاهر تبويب النورسي للمقاصد تقسيمها إلى مقاصد كلية ومقاصد جزئية، وقد ذكرها في أكثر من موضع، عرضها في مقام بيان المقاصد الكلية في القرآن الكريم، يشهد لهذا الاستعمال قوله: "اعلم أنّ في ختم الآيات في الأغلب بفذلكات متضمّنة للأسماء الحسنى، أو بعينها، أو متضمنة للأمر بالتفكّر والحوالة على العقل، أو متضمنة لأمر كلي من المقاصد القرآنية، شرارات من نور حكمته العلوية ورشّات من ماء هدايته الإلهية، إذ القرآن الحكيم ببيانه الإعجازي، يبسط الآثار وأفعال الصانع للنظر، ثم يستخرج منها الأسماء، أو ثبوت الحشر، أو التوحيد"[2]

ويصرّح في سياق آخر بهذه المعاني، فيتّخذ من الإنسان مثالا لتوضيحها، إذ في الإنسان من المطالب الدقيقة الجزئية والخفية جداً تخص راحة قلبه وسلامته، وله أيضاً من المقاصد الكلية المحيطة ما هو مدار لبقاء روحه وسعادتها، بحيث لا يمكن أن يحقّقها له إلاّ من يبصر ما لا يُرى من أرق حجب القلب ويهتم بها

١. انظر صيقل الإسلام ٤١٥ – ٤٢٠

٢. المثنوي العربي النوري ٤٥٨

ويسمع ما لا يُسمع من أخفى الأصوات ويستجيب لها، ومن له القدرة على تسخير السموات والأرض في وظائف جليلة كتسخير الجندي المنقاد للأوامر. وكذا فإنّ جميع أجهزة الإنسان ومشاعره تأخذ مكانة رفيعة بسر التوحيد، في حين تسقط إلى هاوية سحيقة بالكفر والشرك.[1]

جليّ مما سبق بيانه أنّ الأستاذ يوظّف المصطلحين، فيذكر مقاصد كلية تندرج فيها مقاصد جزئية، تتعلّق بمسائل تندرج في الإطار الكلي المشار إليه أعلاه.

### ج. المقصد الأصلي والمقصد التبعي

ويقسّم المقاصد في سياق آخر إلى مقاصد أصلية ومقاصد فرعية، يربطهما رباط التكاتف تحقيقا للغايات الجزئية والكلية، وقد ذكر ذلك التقسيم حين الحديث عن مقاصد القرآن الكريم، يشهد لهذا الاستعمال قوله رحمه الله: "اعلم! أنّ المقصد الأصليّ في القرآن الكريم إرشادُ الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوّة، والحشر، والعدالة؛ فذكرُ الكائنات في القرآن الكريم إنّما هو تبعيّ واستطراديّ للاستدلال، إذ ما نزل القرآن لدرس الجغرافيا والقوزموغرافيا، بل إنّما ذكرَ الكائنات للاستدلال بالصنعة الإلهية والنظام البديع على النظّام الحقيقي جلّ جلاله. والحال أنّ أثر الصنعة والعمد والنظام يتراءى في كل شيء. وكيف كان التشكل فلا علينا، إذ لا يتعلق بالمقصد الأصلي، فحينئذ مادام أنّه يبحث عنها للاستدلال، ومادام أنّه يجب كونه معلوما قبل المدعى، ومادام أنّه يستحسن وضوح الدليل، كيف لا يقتضي الإرشادُ والبلاغةُ تأنيسَ معتقداتهم الحسية، ومماشاة معلوماتهم الأدبية بإمالة بعض ظواهر النصوص، إليها، لا ليدلّ

---

١. انظر الشعاعات ١٩

عليها بل من قبيل الكنايات أو مستتبعات التراكيب مع وضع قرائن وأمارات تشير إلى الحقيقة لأهل التحقيق."[1]

واستعمل مصطلح المقصد الأصلي في سياق آخر، أشار فيه إلى أنّ ذكر الكائنات في القرآن الكريم تبعي واستطرادي بمعنى ليس مقصدا أصليا بل مقصدا تبعيا، يؤكّد هذا المعنى قوله: "إنّ المقصد الأصلي للشارع الحكيم من إرشاد الجمهور محصور في إثبات الصانع الواحد والنبوة والحشر والعدالة. لذا فذكر الكائنات في القرآن إنّما هو تبعي واستطرادي، للاستدلال. أي الاستدلال بالنّظام البديع في الصنعة – الظاهرة لإفهام الجمهور – على المنظّم الحقيقي جلّ جلاله. والحال أنّ أثر الصنعة ونظامها يتراءى في كل شيء. وكيف كان التشكّل فلا علينا إذ لا يتعلق بالمقصد الأصلي."[2]

وقد عبّر عن المقصد الأصلي في سياق آخر بالغرض الأصلي، كإشارته إلى الغرض الأصلي المستفاد من تحديد المقصد[3].

ويقابل المقصد الأصلي في الاستعمال المقصد التبعي، وفق ما صرّح به الأستاذ في النص المذكور سابقا، ومعلوم أنّ المقاصد التبعية تخدم المقاصد الأصلية وتنخرط في سلك خدمتها توضيحا وتحقيقا، إذ لا يتصوّر تحقق المقاصد الأصلية بغير تحقق المقاصد التبعية، فالصلة بينهما عضوية.

---

١. إشارات الإعجاز ٧٧

٢ – صيقل الإسلام ١٥٥

٣ – صيقل الإسلام ١٠١



obeikandi.com

## ثانيا: صيغة عرض المقاصد الكلية والمقاصد الجزئية

عرضت المقاصد الكلية والجزئية في شكل لافت للانتباه، ويؤكّد ذلك العرض التأسيس المعرفي المنهجي لتلك الكليات وما يندرج فيها من جزئيات، وتتأكّد المزاولة المنهجية في النقاط الآتية:

### ١) المقاصد الكلية جواب لأسئلة متكررة متفاوتة

المقاصد الكلية جواب لأسئلة متكررة متفاوتة، تنتهي إلى التمازج والاتحاد، كأنّها جواب لسؤال واحد، جاءت بياناً لحادثات أحكامٍ متعدّدة متغايرة، مع كمال الانتظام كأنّ الحادثة واحدة..

ويتوافق بهذا الصدد الكتاب المنظور (الكون) مع الكتاب المسطور (الوحي)، فتجد كلا منهما متضمناً لتنزلات أو أفعال إلهية في أساليب تناسب أفهام المخاطبين، فالكتاب المسطور له تنزلات تناسب الخلق من جهة الأفهام، ولاسيما، المنزل عليه "عليه السلام" بحالات في التلقي متنوعة متخالفة، مع غاية التماثل والسلاسة، كأنّ الحالة واحدة.. وجاء متكلماً متوجهاً إلى أصناف مخاطبين متعددة متباعدة، مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام كأنّ المخاطب واحد، بحيث يظنّ كلُ صنف كأنّه المخاطب بالأصالة.. ونزل مهدياً وموصلاً لغايات إرشادية متدرجة متفاوتة، مع كمال الاستقامة والنظام والموازنة كأن المقصد واحد، تدور تلك المقاصد والغايات

على الأقطاب الأربعة وهي: "التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة". فبسرّ امتلائه من التوحيد، التأم وامتزج وانتظم واتحد.[1]

يمكن أن نقرر مما سلف أنّه مع تعدد المقاصد الكلية وتنوّع المقاصد الجزئية المندرجة فيها يشمل جميع تساؤلات البشر وحاجاتهم، كأنّها تجيبهم إلى طلبهم من غير طلب منهم، ليس هذا فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى تقرير المطلوب في أنماط متنوّعة تشبع الحاجة إلى معرفة المقاصد الكلية والجزئية وزيادة.

## ٢) تنوّع صيغ التعبير عن المقاصد

تذكر المقاصد الكلية بأشكال مختلفة متنوّعة تخدم أهدافا كلية تضبطها المقاصد الكلية، ذلك أنّ القرآن الكريم قد يذكر بعضاً من المقاصد الجزئية، ثم لأجل أن يحوّل تلك الجزئيات إلى قاعدة كلية، يجيلَ الأذهان فيها.

من ذلك مثلا تثبيت وإثبات المقصد الجزئي وتأكيده بالأسماء الحسنى التي هي قاعدة كلية، ولأجل جعل هذا المقصد الجزئي كلياً تفيد الآية بأنّ الذي يسمع أدنى حادثة من المخلوقات ويراها، يلزم أن يكون ذلك الذي يسمع كل شيء ويراه، وهو المنزه عن الممكنات.والذي يكون رباً للكون لا بدّ أن يرى ما في الكون أجمع من مظالم ويسمع شكوى المظلومين، فالذي لا يرى مصائبهم ولا يسمع استغاثاتهم لا يمكن أن يكون رباً لهم، ومن أمثلة ذلك على رأي النورسي، أنّ جملة (إن الله سميع بصير) تبين حقيقتين عظيمتين. كما جعلت المقصد الجزئي أمراً كلياً[2]، أي أنّ الخلوص إلى الإقرار القطعي بالمقصد الجزئي إنّما ثبت بالتكرر المفيد تقرير النتيجة وصحتها وإن كانت جزئية، ذلك

---

١. المثنوي العربي النوري ٢٣٠

٢. انظر الكلمات ٤٩٦- ٤٩٧

أنّ تنوّع وجوه تكرار الجزئيات وتعدّدها يقرر كلية المقصد الجزئي وقطعيته من زاويتي الثبوت أولا والجزئية ثانيا.

### ٣) صيغة التكامل بين المقاصد الجزئية الكلية

تقوم فلسفة المقاصد على التناغم الداخلي بين المقاصد الفرعية خدمة لمقصد كلي،ثم تتضافر المقاصد الكلية محققة التكامل فيما بينها خدمة لمقصد المقاصد،و يفرض تحقيق ذلك تكاملا فرعيا وكليا في المقاصد ثم بين المقاصد نفسها.

تؤكد الصيغ المشار إليها أعلاه الدور التكاملي بين المقاصد الجزئية والكلية، بحيث يستحيل تصوّر مقصد كلي بغير مقصد جزئي من الناحية النظرية البحت، والمحال نفسه معدوم من الناحية العملية الصرف، لهذا فالمقاصد الجزئية تخدم المقاصد الكلية خدمة مباشرة، وتمثّل فرشتها الضرورية كما أن المقاصد الكلية تمثّل العمد، وهي الأهداف الكبرى التي تتوخى المقاصد الجزئية تحقيقها.

### ٤) تربوية وتعليمية عرض المقاصد

يبيّن القرآن الكريم الحقائق النورانية بجميع فروعها وأغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بياناً في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقةٌ حقيقةً أخرى ولا يفسد حكمُ حقيقةٍ حُكْماً لأُخرى، ولا تستوحش حقيقة من غيرها.. وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بيّنَ القرآن الكريم حقائق الأسماء الإلهية والصفات الجليلة والشؤون الربانية والأفعال الحكيمة بياناً معجزاً بحيث جعل جميع أهل الكشف والحقيقة وجميع أولي المعرفة والحكمة الذين يجولون في عالم الملكوت، يصدّقونه قائلين أمام جمال بيانه المعجز والإعجابُ يغمرهم: سبحان الله! ما أصوبَ هذا! وما أكثر انسجامه وتوافقه وتطابقه مع الحقيقة وما أجمله وأليقه.[1]

---

١. الكلمات ٥٠٧

يمضي القرآن الكريم – بجميع آياته المتوجهة للكون (أي الآيات الكونيـــة) – على هذا الأساس، فيكشف عن حقيقة الدنيا كما هي، ويبيّنها للأنظار. ويصرف نظر الإنسان ببيانه إلى مدى دمامة وجه الدنيا القبيح – بتلك الآيات – ليتوجه إلى الوجه الصبوح الجميل للدنيا الجميلة، ذلك الوجه المتوجه إلى الصانع الجليل. فيوجّه نظر الإنسان إلى هذا الوجه، ملقّناً إيّاه الحكمة الصائبة والفلسفة الحقّة بما يعلّمه من معاني كتاب الكون الكبير مع التفاته إلى حروفه ونقوشه، من دون أن يبدّد جهوده فيما لا يعنيه من أمور نقوش الحروف الزائلة كما تفعله الفلسفة الثملـــة العاشـــقة للقبح، حيث أنستْه النظر إلى المعنى والمغزى.[1] أي غفلت عن تحديد مقاصد فضلا عن السعي إلى تحقيق أهداف إنسانية.

ويبين بالإعجاز نفسه "الكون" الذي يراه الغافلون فضاء موحشاً بـــلا نهايـــة، وجمادات مضطربة بلا روح تتدحرج في دوامة الفراق والآلام، يبيّنه القرآن: كتاباً بليغاً، كتبه الأحد الصمد، ومدينة منسّقة عمّرها الرحمن الرحيم، ومعرضاً بـــديعاً أقامه الربّ الكريم لإشهار مصنوعاته، فيبعث بهذا البيان حياة في تلك الجمـــادات، ويجعل بعضها يسعى لإمداد الآخر، وكل جزء يغيث الآخر ويعينه، كأنّه يحـــاوره محاورة ودية صميمة، فكلّ شيء مسخّر وكلّ شيء أنيط به وظيفـــة وواجـــب، وهكذا يلقي القرآن دروس الحكمة الحقيقية والعلم المنوّر إلى الإنس والجن والملائكة كافة.فلا ريب أنّ هذا القرآن العظيم – الذي له هذا الإعجاز في البيان – قمين بأن يحوز خواص راقية عالية، وميزات مقدسة سامية.[2]

---

١. الكلمات ٥١١

٢. الكلمات ٥٢٧